

الفصل الرابع

كتابة الرسائل

— ١ —

من عمرو إلى ابن طولون

كتابة الرسائل ، أو الكتابة الإنشائية ، نوع من النثر الفنى المسطور الذى يعتمد على الأفكار المنظمة تنظيماً جميلاً ، وعلى صياغة هذه الأفكار فى عبارات وألفاظ متخيرة ويكون التراسل به بين طرفين غالباً ، وله رسوم فى البدء والختام تميزه عن غيره من أنواع النثر الأخرى .

ويطلق مؤرخو الأدب العربى كلمة الكتابة على هذا النوع ، ومن ذلك القول الشائع : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » — وإن لم تختم إلى الآن — .

ويقسمون الرسائل قسمين عامة وخاصة ، وتسمى الأولى الديوانية ويقصدون بها الرسائل الإنشائية التى تصدر عن الخلفاء والأمراء والسادة والقادة ، فى شأن من شئون الدولة ، أو فى مسألة عامة يهتم بها الحاكمون . والثانية الإخوانية ويقصدون بها الرسائل الخاصة التى تجرى بين الناس فى أمور تعنيهم . وتطور هذا النوع من الكتابة حتى شمل مختلف الشئون التى تهتم الأفراد والجماعات . وتغير لفظه ومعناه ، وأساليبه وعباراته وموضوعاته ؛ فصار من العسير أن تعينه له موضوعاً ، أو أن تقصره على نوع من المعانى ، أو أن تخصه بطائفة من الأفكار ، ووصل إلى غاية سامية من التنوع والقوة فى القرن الرابع الهجرى ، وشمل من المعانى

الماظفية رسائل العتاب والشفاعة والاعتذار والشكوى والتهديد والاشتياق والمدح وغير ذلك .

وولى أمر الكتابة رجال عرفوا بسعة المعارف ، وجودة الروية ، وحسن التصرف ، وجمال التعبير .

وكان استقلال ابن طولون فاصلا بين عهدين من عهود الكتابة الإنشائية بمصر ؛ أولهما من عمرو بن العاص إلى ابن طولون ، وثانيهما من ابن طولون إلى قيام الفاطميين .

وفي هذا الفصل حديث الكتابة إلى زمن ابن طولون :

(١) في زمن الراشدين :

لما قدم عمرو بن العاص بجنوده لغزو مصر ، وقادهم إلى نصر مؤزر ، وفتح مابين فدانت لهم البلاد ، وفتح الله عليهم هذا الوادى الخصيب . كان أهم ما يشغلهم في عهدهم الأول - - عهد عمر - أن تكون صلتهم بالمدينة المنورة متصلة ، وأن تجرى بينهم وبينها مراسلات ، يخبرون الخليفة فيها بأخبار الحرب والصلح والنصر والفنائم والخراج ، وبكل ماله ارتباط بإدارة البلاد وسياستها مما يحتاجون فيه إلى رأى الخليفة وأوامره ، فكانوا يطلبون منه العون عند الحاجة ، ويخبرونه بشروط الصلح إذا كان صلح ، ويبشرونه بالنصر إذا جاءهم به الله ، وقد يصفون له أحوال البلاد ، ويذكرون له طبيعة أرضها ، وما تنبت من زروع وثمار ؛ ويصفون أحوال النهر الذى يسقى هذه البلاد ، وزمان فيضه وغيضه ، ويذكرون له أزمان الحصاد ، ومقدار الخراج ومواعيد الجباية ، وغير ذلك من شئون السياسة والحرب والإدارة .

وكان العرب فى مصر ، كما كانوا فى الحجاز والشام والعراق ، حديثى عهد بالكتابة ، ليس لهم فيها نظام قديم ، ولا تقاليد سابقة ، ولا فروق معينة بين نوع

منها ونوع . فكانوا من أجل هذا أحراراً في رسائلهم ، يكتب كل منهم على سجيته ، لا يقيد به إلا عبارات البدء والختام الدينية وفكرته عن الموضوع ؛ كان حراً في أن يكتب عن الممانى التي تدور في خاطره عندما يعتمز الكتابة ، مع الإيجاز وحسن الأداء . فامتزج الأدب برسائل السياسة والإدارة ، وصبغت هذه الرسائل بصبغة أدبية ، حتى في الموضوعات التي تبدو إدارية خالصة . ونذر أن تشذ رسالة أو عهد أو وصية عن هذا . وليس غريباً أن تكون كتابتهم على هذه الصفة إذا عرفنا أن الذين كانوا يتولونها هم سادتهم وكبرائهم من الخلفاء وقواد الجيوش ، ومستشاريهم وأعوانهم .

ويمثل هؤلاء السادة في مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه . وقد رويت عنه رسائل قوية الأداء جميلة التعبير . ومن أقوى رسائله وأشهرها رسالته في وصف مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يسأله وصفها^(١) ، فكتب إليه :

« إن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتسفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميسمون الغدوات ، مبارك الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجز عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه ، كأول ما بدا في شدته ، وطمأ في حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرقوا بطون أوديته وروايه ، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدبر حلاؤه ، وينغى ذبابه . فبينما هي يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء وإذا هي زبرجدة خضراء ، فتعالى الله

(١) عمرو بن العاص للمقاد ص ٣٢ .

الفعال لما يشاء .

« والذي يصلح هذه البلاد وينميتها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها .
والأيستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها
وترعها .

فإذا تقرر الحال مع العمل في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله
تعالى يوفق في المبتدأ والمآل .»

وأظهر ما في هذه الرسالة غلبة السجع عليها ، لكنه سجع لا تكلف فيه
ولا تَعْمَلُ ، فهو عذب سائغ ؛ وتظهر فيها دقة الوصف وشموله أيضاً ، فقد وصف
جانبيها الجديب والحصيب ، وبين ذرعها طولاً وعرضاً ، وتحدث عن نهريها في
حاليته ، فوصفه خالياً وطامياً ؛ ووصف الناس وأعمالهم زمن الفيضان وبمده . إلى
آخر ما جاء فيها .

وقد وُجِّه إلى هذه الرسالة طعون تنكر نسبتها إلى عمرو وإلى هذا العصر؛
وتنسبها إلى غيره من العصور المتأخرة التي نضجت فيها الكتابة العربية ، واهتم
رجالها بالحليلة اللفظية ، وترتيب المعاني واستقراءها . ونسبت بعض الروايات^(١) إلى
هذه الرسالة دعاءً في أولها لأمير المؤمنين . وأنها لم تبدأ بحمد الله ولا بسلام على
المرسل إليه في تلك الرواية .

وعندي أن هذا كله لا يكفي لإنكار نسبتها في جملتها لعمرو بن العاص ؛ فهذا
الوصف الذي كتبه وصف حسي ، يستطيع أن يكتبه كل من عنده قدر من الملاحظة .
وقد عرفها عمرو قبل الإسلام ، ثم تزها فأتحماً فوجب أن يعرف شيئاً عن طبيعة
البلاد ، وطاف في كثير من أرجائها عند فتحها^(٢) .

وظالت إقامته فيها فشاهد كل ما وصفه في رسالته . وكان وصفه لها بعد أن

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ (٢) ص ٤ من هذا الكتاب .

استوصفه عمر ؛ إذ كان حريصاً على معرفة أحوال المسلمين ، والبلاذ التي ينزلون بها ؛ ليرى رأيه في أحوالهم ومنازلهم ، ويأمر بما يراه صالحاً لهم . وشبهه ذلك ما فعله بالعراق ، فقد أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أيضاً وهو في القادسية يقول له : « فصف منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن ، صفةً كأنى أنظر إليها واجملنى من أمركم على الجليّة »^(١) . فكتب إليه سعد يصف القادسية وما حولها . أما ميل عمرو رضى الله عنه إلى الوصف فله أكثر من مثال : منها الوصف الذى تقدم ، ومنها وصفه للاسكندرية^(٢) بعد فتحها ، ومنها وصفه للبحر .

وما علينا من حرج فى أن نذكر قصة هذا الوصف :

روى أن معاوية — وهو وال على الشام — أرسل إلى الخليفة عمر يستأذنه فى فتح قبرص ، ويذكر له قربها من الساحل ، حتى قال له : « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم ، وصياح دجاجهم (يقصد قبرص) » ، فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر ؛ ولكنه اتهمه ، وكتب إلى عمرو بن العاص : أن صف لى البحر وراكبه ؛ فإن نفسى تنازعنى إليه .

فكتب إليه عمرو :

إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، إن ركنَ خرَّق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ؛ والشك كثرة ، هم فيه كبدود على عود إن مال غمريق ، وإن نجا بريق^(٣) .

وكتب هذا الوصف للبحر وهو وال على مصر .

وقد عرف عن عمرو أنه وصف نفسه أيضاً^(٤) .

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) المقرئى ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) تاريخ الإسلام للنجار ص ٨٨ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٢ .

فعمرو وصاف للبلاد والمدن والبحر والرجال .

أما الناحية اللفظية أو الناحية الشكلية ، فليست ضعيفة أمام الطعن الذي يوجه إليها ، إذ أن السجع فيها ليس غريبا على عمرو بن العاص ، وقرأ خطبته السابقة^(١) ووصفه القريب للبحر ؛ ففيهما السجع المقبول ، كما في رسالته التي نتحدث عنها ، وفي إنشاء عصره كثير من السجع أيضا . فليس السجع غريبا عليه ولا على زمنه . وأما خلو الرسالة من بعض عبارات البدء والختم التي كانت متبعة في عصره كالبسملة أو الحمدلة أو السلام ، فلا يطعن في الرسالة أيضا ، إذ أن الرواة كانوا يشيرون إلى ذلك ، وقد يتركونه اكتفاء بما هو معروف من التزام الكتاب والخطباء لهذه العبارات . ولو أن شيئا منها قد أهمل في رسالة عمرو لالتفت إليه الرواة ونصوا عليه ، كما التفتوا إلى إهمال زياد أن يبدأ خطبته بحمد الله ، فسموها « البترء » .

لكن هذا الدفاع عنها لا يمنع أن يكون الدعاء لأمر المؤمنين ، الوارد في بعض رواياتها ، شيئا أضيف إليها فيما بعد ، وكذلك الجزء الأخير منها ؛ لأنه ضعيف السجع متكلف التركيب ، بادي الهزال .

واختلاف الروايات في هذه الرسالة يقطع بأن بعض التغيير والتبديل قد أصابها إما من فعل الرواة أو من عمل النساخ . كما حدث هذا في كثير من النصوص الأدبية التي تداولتها الأيام رواية وحفظا .

وكان لعمرو رسائل أخرى يرد بها على أمير المؤمنين في حسابه المسير الذي كان يصيبه ويصيب غيره من عمال الدولة . ولدينا من ذلك مراسلات بينهما يبدأ الخليفة فيها باتهام عمرو ، ويدفع عمرو عن نفسه بأعذار يراها مبررة ، ولا يقبل الخليفة

(١) ص ٢١ من هذا الكتاب .

منه عذره . وهذه بعض الرسائل :

كتب عمر بن الخطاب :

« من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فإنه بلغني أنه فسّست لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ألا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال ولا تكتمه » .
فكتب إليه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد . فأني أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي ، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي . وإني أعلم أمير المؤمنين أني يبلى السمر فيه رخيص ، وإني أعالج فيه من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفي رزق أمير المؤمنين سعة . والله لو رأيت خيانتك حلالاً ماخنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ! ولعمري إن عندك من تدم معيشته ولا تدم له ، فأني كان ذلك ولم يفتح قفلك ؛ ولم نشركك في عملك » .
فرد عليه عمر :

« أما بعد . فأني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر ، ونسقت الكلام في غير مرجع ، لا يعني عنك أن تترك نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك ، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ... تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العار ، وتورثون النار ، والسلام » .

وذهب إليه محمد بن مسلمة وشاطره ، وأبى أن يشرب عنده شربة ماء ، وغضب عمرو وسخط ؛ فكتب محمد بن مسلمة ذلك ولم يخبر به أمير المؤمنين ^(١) .
وزي في رد عمرو أنه بدأ هادئاً ، يفند التهم ويعتذر عما أخذ عليه . ثم يشور

(١) العقد ج ١ ص ٢٦ ، صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٧٧ .

فجأة ، وينفجر انفجارا حين يقول للخليفة : « فأقصرأيها الرجل ! فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك » ، ولم يعبا الخليفة بهذه اللهجة فكان رده عليه قاسيا ، صريحا في الاتهام بلا خوف ولا محاملة .

وكان عمرو يتلقى من أمير المؤمنين رسائل عنيفة بين الحين والحين ، وهذه إحداها :
لما استبطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنني فكرتُ في أمرك والذي أنت عليه ، فاذا أرضك أرضٌ واسعة ، عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عدداً وجَلداً ، وقوة في برٍّ وبحرٍ ، وإنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملاً محكماً ، مع شدة عُتُومهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحوط ولا جذب . ولقد أكرتُ في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تريث ، ورجوت أن تفيقَ فترفعَ إلى ذلك ، فاذا أنت تأتيني بمعارضٍ^(١) تعباها ، لا توافق الذي في نفسي ، ولستُ قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذُ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك ، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة ، ولئن كنت مضيعاً نطعاً^(٢) إن الأمر لعملي غير ما تحدث به نفسك ، وقد تركتُ أن أبتلي ذلك منك في العام الماضي ، رجاء أن تفيقَ فترفعَ إلى ذلك . وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمالُ السوء ، وما توألس^(٣) عليه وتلّف^(٤) . أتخذوك كهفأ ،

(١) معارض : إجابات غير صريحة . (٢) نطعاً : بضم الطاء والعين ، متشدداً في كلامك .

(٣) توألس : تتخادع . (٤) تلّف : تجمع من هنا وهناك .

وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتمطاه . فان النهر يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فانه قد برح الخفاء ، والسلام^(١) .
وهذا رد عمرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص :
سلام عليك ، فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطناني فيه من الحراج ، والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ؛ لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا ، منذ كان الإسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فخلبتها حلبا قطع درها ، وأكثرت في كتابك وأنبت ، وعرضت وتربت ، وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر ، فحجت لعمري بالمفطعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم ، بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدبين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به شينا ، فيعرف ذلك لنا ، ويصدق فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجترأ على كل مأثم ، فاقبض عمك ، فإن الله قد زهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أبا ، والله يابن الخطاب لأننا حين يراد ذلك مني ، أشد لنفسي غضبا ولها إنزاهة وإكراما ، وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ، ولكني حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت . يفر الله لك ولنا ؛ وسكت عن أشياء

كنت بها عالماً ، وكان اللسان بها منى ذلولا . ولكن الله عظم من حقتك
عالمًا يُجْهَل ، والسلام^(١) .

فهذا اعتذار من تهمة ، وتنصل من قذف ، ودفاع عن شرف ، وإنك لترى
فيه نفوس المغيظ الثائر ، وأدب المرءوس التابع ، واعتزازاً بنزاهة الولاية ، واستقالة
من سوء ظن الخليفة به ، وعتباً وتذكيراً .

وكان هناك رسائل في عهد عثمان ، كتب بها الثائرون بعضهم إلى بعض ،
يذكرون سيئات عثمان عندهم ، وعيوبه في نظرهم ، ثم جاوزوا النقد إلى الثورة ،
واتهموا بقتله ؛ وكان قتله باب فتنة كبرى شبت نارها في البلاد الإسلامية لم
يخمد لهيبها .

وبويح بعده علي ، واتهم بالتهاون في القصاص من قاتليه ، وأبى معاوية أن
يبايعه ، ثم نازعه في الأمر ، وطلب الخلافة لنفسه ، وكان للنزاع بينهما صدى
حربي وأدبي في مصر ، أشرنا إلى جزء منه في حديثنا عن الخطابة^(٢) . واستعان
كل منهما ومن أنصارها بالبيان وسحره ، وأثر لنا من ذلك العهد رسائل صدرت
عن مصر أو وردت إليها ، صارت جزءاً من تاريخها ، وسجلاً من سجلات
أحداثها . تمتاز بقوة بواعثها ، وحرارة النزاع فيها ، وثورة العواطف في سطورها ،
وغليان النفوس في عباراتها ، وحرية القول في ثنائها ؛ طعنًا أو تهديدًا ، أو دفاعًا ،
أو ثناءً ، أو إغراءً ، أو غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الرسائل .

ومنها رسالة من سيدنا علي بعث بها إلى أهل مصر^(٣) مع قيس بن سعد بن
عبادة ، يقدمه إليهم لما ولاء عليهم . فخرج قيس في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل

(١) حسن المحاضرة ١ : ٦٤ ، خطط المقرئ ١ : ٨٧ .

(٢) ص ٢٨ من هذا الكتاب .

(٣) أشر إلى هذه الرسالة في ص ٢٨ من هذا الكتاب أيضاً .

مصر ، فصعد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين ، فقرأه على أهل مصر ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله على أمير المؤمنين ، إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله عز وجل ، بحسن صنيعه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسوله ، وبعث به الرسل عليهم السلام ، إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة ، أن بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فعلمهم الكتاب والحكمة ، والفرائض والسنة ، لكي ما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرقوا ، وزكاهم لكي ما يتطهروا ... فلما قضى من ذلك ما عليه ، قبضه الله عز وجل ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ، ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملاً بالكتاب والسنة . وأحسننا السيرة ، ولم يعدوا السنة ، ثم توفاهما الله عز وجل ، رضي الله عنهما . ثم ولي بعدهما والي ، فأحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا . ثم تقموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني ، فأستهدى الله عز وجل بالهدى ، وأستمينه على التقوى ؛ ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنة ، والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

« وقد بعثت إليكم « قيس بن سعد بن عبادة » أميراً ، فوازره ، وكانفه ، وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على صريكم ، والرفق بموالمكم وخواصكم . وهو ممن أرضى هديته ، وأرجو صلاحه ونصيحته .

أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكياً ، وثواباً جزيلاً ، ورحمة واسمة ،
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
« وكتبه « عبید الله بن أبي رافع » في صفر سنة ٣٦ » .

وكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري ، ومعاوية بن حديج الكندي .
وكانا قد خالفاً علياً^(١) :

« أما بعد . فإن الله قد بعثك لأمر عظيم ، أعظم به أجر كما . ورفع به ذكر كما ،
وزينك به في المسلمين ؛ طلبك بدم الخليفة الظلوم ، وغضبك الله إذ ترك حكم
الكتاب . وجاهدتما أهل البغي والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجل نصر
أولياء الله ، والمؤاساة لكما في الدنيا وسلطاننا ، حتى ينتهي في ذلك ما يرضيكما ،
ونؤدى به حقكما إلى ما يصير أمركما إليه ، فاصبرا وصابرا عدوكما ، وادعوا المدبر إلى
هداكتما وحفظكما ، فكان الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تکرهان . وكان
كل ما تهويان . والسلام عليكما ورحمة الله » .

فلما جاء الكتاب رد إليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج .
« أما بعد ، فإن هذا الأمر الذي بذلنا له أنفسنا ، واتبعنا أمر الله فيه ، أمر
نرجو به ثواب ربنا ، والنصر ممن حالفنا ، وتمجيل النعمة لمن سمي على إمامنا .
وظائماً الركض في جهادنا ، ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفيتمنا من كان به من
أهل البغي ، وأنهضنا من كان به من أهل القسط والميل . وقد ذكرت المؤاساة
في سلطانك ودنياك ، وبالله ما ذلك الأمر الذي له نهضنا ، ولا إياه أردنا ، فإن
يجمع الله لنا ما نطلب ، ويؤتينا ما نتمينا ، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد
يؤتيهما الله جيماً عالماً من خلقه ، كما قال في كتابه ، ولا خلف لموهوره : « فاتاهم
الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » . عجّل علينا خيلك

وَرَجَلِكْ، فَإِنْ عَدَوْنَا قَدْ كَانَ حَرْبًا عَلَيْنَا، وَكُنَّا فِيهِمْ قَلِيلًا، فَقَدْ أَصْبَحُوا لَنَا هَائِبِينَ وَأَصْبَحْنَا لَهُمْ مُقْرَنِينَ^(١) فَإِنْ يَوْتُنَا اللَّهُ بِمَدَدٍ مِنْ قَبْلِكَ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ؛ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.»

وكان من نتيجة هذا الخطاب أن أمر معاوية عمراً بالتجهز والخروج، فخرج في جيش، مزوداً بنصيحة من معاوية. فلما نزل مصر كتب إلى محمد بن أبي بكر: «أما بعد. فتسح عني بدمك يا بن أبي بكر، فإنني لا أحب أن يصيبك مني ظفر. إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، وهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان. فأخرج منها فإنني لك من الناصحين^(٢)».

وأرسل معه بكتاب من معاوية إليه. «صورته»:

«أما بعد، فإن غيب البغي والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا، ومن التبعة الموبقة في الآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغيًا، ولا أسوأ له عيبًا، ولا أشد عليه خلافاً منك: سميت عليه في الساعين. وسفكت دمه في السافكين ثم أنت تظن أني عنك نائم أو ناس لك، حتى تأتي فتأمر على بلاد أنت فيها جاري، ووجل أهلها أنصاري، يرون رأيي، ويرقبون قولي، ويستصرخونني عليك! وقد بعثت إليك قوماً رحناقاً عليك، يستسقون ديمك، ويتقربون إلى الله بمجاهدك، وقد أعطوا الله عهداً ليؤمّنن بك، ولو لم يكن منهم إليك سوى قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك، ولأحبيت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك، وعدوك على عثمان. يوم طعين بمشاقصك بين خششائه وأوداجه، ولكن أكره أن يتمثل بقرشي ولن يسلمك الله من

(١) مطيعين. من «أقرن الشيء» أي: أطاقه.

(٢) ج ١ النجوم الزاهرة ص ١٠٩.

القصاص أبداً أينما كنت ، والسلام^(١) .
وأخبر محمد سيدنا علياً الخبر وطب منه المدد ، ورد عليه سيدنا علي يهون أمر
هذه الحملة ، وأن يجيب على رسالتهما . فكتب إلى معاوية :
« أما بعد . فقد أتاني كتابك . تذكروني من أمر عثمان أمرا لا أعتذر إليك
منه ، وتأمرني التنحي عنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني المثلة ، كأنك شفيق ، وأنا
أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم فأجتاحكم في الوقعة . وإن توثوا النصر ،
ويكن لكم الأمر في الدنيا ، فكم لعمرى من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد
قتلتم ومثلتم به . وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مرد الأمور . وهو أرحم
الراحمين . وهو المستعان على ما تصفون » .

وكتب إلى عمرو بن العاص :

« زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر ، وأشهد أنك من المبطلين ، وترغم
أنك لي نصيح ، وأقسم أنك عندي ظنين ، وترغم أن أهل البلد قد رفضوا رأيتي
وأمرى ، وندموا على اتباعي ، فأوائك لك وللشيطان الرجيم أولياء^(٢) » .
لقد كانت رسالة معاوية إلى ابن حديج ومسله كما ترى ، رسالة مدح وثناء ،
وإطعام وإغراء ، ووعد ممسول بالمشاركة في سلطانه إذا كانت له الغلبة والعاوية .
وكان رد مسلة عن نفسه وعن صاحبه رد المؤمن بعقيدته ، الفاضل لقتل
خليفته ، المعرض عن دنيا معاوية ووعوده ، على أنه لقي جزاءه الموفور لما آلت
البلاد إلى معاوية ، فحكها له ، ولابنه يزيد من بعده ، خمسة عشر عاما (من سنة ٤٧
إلى سنة ٦٢ هـ) .

(١) المشقص سهم فيه نصل عريض . الأصل خششاء ويسكن ويدغم فيصبح خشاء بضم
الأول وهو : العظم النائي خلف الأذن ، والأوداج جمع ودج وهو عرق الأخدع الذي يقطعه
الذابح فلا يبقى معه حياة ، وقيل هو كل عرق إذا أقطع مات صاحبه ، وله أسماء : فهو الوريد في
العنق ، والودج أيضا ، والنياط في الظهر والاهبر في الصلب وهو متصل بالقلب الخ .

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين للتجار من ٤٦٣ .

وكانت رسالة معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي بكر طعناً وتمخذيلاً ، ووعيداً وتهديداً ودعوة إلى الاستسلام قبل أن ينزل به أشد الانتقام .

وكان رد ابن أبي بكر عليهما رداً تملؤه الحماسة ، والإصرار على ما فعل ، والإدراك الصحيح لما يرمى إليه خصماه ، وفيه تهكم واتهام لمعاوية وعمرو فيما أبدياه من إشفاق عليه ، وما بذلاه من نصيحة له .

وترى في هذه الرسائل صورة واضحة من رسائل العهد الأول ، طابعها الإيجاز ورنين العبارات ، والاستمانة بآيات الله لتكسيبها قوة وزينة ، والمحافظة على الكلمات والعبارات التي كانت تبتدىء بها الرسائل وتنتهى .

وهذا الأسلوب الخطابي الذي يسيطر عليها جميعها أسلوب فرضته موضوعاتها ومناسباتها ، فاستعان كاتبها بكل ما يؤثر في القارىء من قوة البيان ، والمهارة في إبداء الحججة ، واللباقة في عرض وجهة النظر والدفاع عنها ، واتهام الخصم وإبعاده وتهديده .

وهي — على إيجازها — تشمل كثيراً من المعاني التي جاشت بها نفوس كاتبها ، وعليها سيا منشئها ، وانظر إلى معاوية في رسالتيه تجده السياسي الماهر الذي يزين لمسلمة أفعاله ، ويستريده منها ، ويفريه بالسلطان لاستمرار الثورة . وهو مع ابن أبي بكر شديد مخيف يرى أنه لا بد من السيف ، ولكنه يخلع قلبه قبل اللقاء . فيذكر له قوة من معه ، وحرصهم على دمه ، ورغبتهم في التمثيل به ، ويبدى له من النصيحة والإشفاق بعد ذلك ما يطعمه في عفوه ، ولكن خاب ظنه في ابن أبي بكر الذي أصر على الحرب وثبت . فدارت عليه الدائرة ، ولله عاقبة الأمور .

ب — في عهد بني أمية :

لم تخرج الكتابة في عهد الأمويين عما رسم لها من قبل من حيث البدء والنهاية والإيجاز وقوة البيان ، وكان يغلب عليها السياسة فهي كتب مبايعات أو أمان

أو أوامر بزيادة في أعطيات الجند أو في شأن الخراج أو ما أشبه ذلك من أمور الدولة . وقل أن تجد فيها رسالة إخوانية أو أن تكون دائرة حول شئون خاصة بين اثنين .

وكان زمامها بيد الولاة والعمال ، فإنما نجد مسلمة بن مخلد يكتب إلى عابس بن سعيد واليه على الشرط أن يأخذ البيعة ليزيد^(١) ، ونجد مروان بن الحكم يكتب أماناً إلى أهل مصر بيده ، يؤمنهم على جميع ما أحدثوه^(٢) .

وكانت ولاية العهد عيباً من عيوب بني أمية ، إذ كان الخليفة يعهد بالأمر بعده إلى أكثر من واحد ، فإذا مات حدث بينهم من النزاع والكراهة شيء كثير وأول من عهد إلى اثنين مروان بن الحكم ، عهد بها إلى ابنه عبد الملك ، ثم عبد العزيز ، فلما شب الوليد بن عبد الملك ، رأى أبوه أن يجعل الأمر له ويخلف عبد العزيز ، وكتب في ذلك إلى أخيه يقول :

« يا أخي إن رأيت أن تُصير الأمر لابن أخيك ، الوليد ، فافعل » . فأبى عبد العزيز فكتب إليه عبد الملك ثانية . « فاجعله من بعدك فإنه أعز الخلق إلى » فكتب إليه عبد العزيز : « إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما تراه في الوليد^(٣) » .

وفي رواية الكندي^(٤) أنه كان في كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك : « إنك لو رأيت الأصبع لسرك ، ولم تقدم عليه أحداً » .

فكتب إليه عبد الملك ثالثة : « فاحمل خراج مصر إلى » . وكأنه يخرجه . فكتب إليه عبد العزيز : « إني وإياك قد بلغنا سنّاً لم يبلغها أحد من أهلنا ، وإننا لا ندرى أينما يأتيه الموت أولاً ، فإن رأيت ألا تُفثتَ عليّ بقية عمري ، ولا

(٢) الولاة والقضاء من ٤٥

(١) الولاة والقضاء من ٣٩

(٤) من ٥٤

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٣

يأتيني الموت إلا وأنت واصل ، فافعل » .

فرق له عبد الملك وقال : لا أعثث عليه بقية عمره . ومات عبد العزيز قبله وانتقلت الخلافة الى الوليد .

نقل الديوان إلى العربية :

ومن المسائل التي يعرض لها تاريخ الأدب لما نقل الدواوين في مصر إلى اللغة العربية — والمقصود بها دواوين الخراج طبعاً ، فإن ديوان الإنشاء لم يكن موجوداً ، ولو كان موجوداً ما كان إلا بالعربية — والشائع أن نقل الديوان كان في عهد عبد الله بن عبد الملك ، وبأمر منه ، سنة ٨٦ هـ^(١) .

أما الأصل الذي نقلت عنه فهو القبطية عند مؤرخي العرب . ولما أمر عبد الله بنسخها بالعربية صرف أشناس عنها ، وجعل عليها ابن يربوع الفزاري من أهل حمص .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الدواوين كانت باليونانية ، وحجتهم في ذلك أن البلاد كانت تابعة للدولة الرومانية الشرقية زمناً طويلاً ، وكانت اللغة اليونانية لغة رسمية في كل بلاد الدولة ، ومنها مصر والشام . فلما جاء العرب لم يغيروا شيئاً من طرق الروم في تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم . ويستدل القائلون بهذا الرأي بدليل آخر ، هو أن أوراق البردي العربية التي اكتشفت حديثاً ، وترجع إلى عهد الوليد بن عبد الملك ، كتبت باليونانية والعربية .

وليس في هذا الاحتجاج من القوة ما يهدم قول المؤرخين العرب . وذلك لأن اليونانية التي بقيت في دواوين الشام حتى ترجم عنها العرب ، لم تكن لها لغة تنافسها في تلك البلاد ، ولا مذهب ديني يخالف مذهب الدولة الحاكمة ، لقي

(١) الولاة والقضاء ص ٥٩ . وفي صبح الأعشى ج ١ ص ٤٤٢ أن ذلك كان في عهد

عبد العزيز بن مروان .

أهله كل ذل وهوان واضطهاد ، وتعذيب من هذه الدولة . واللغة القبطية كانت لغة قوية ، لها وجودها وأدبها وفلسفتها . الخ . والذين كانوا يلون أمر الدواوين في مصر من الروم قد هجروا البلاد إلا قليلا منهم . يقول بترل^(١) : « على أنه لا بد قد خلت أعمال كثيرة ، إذ ترح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الإسلام ، فجعل العرب في مكانهم عمالا من القبط فما صار إلا قليل زمن حتى صار عمال الدولة يكادون يكونون جميعاً من المسيحيين » .

وهناك طريقة كانت تتبع في جباية الخراج . وهي أن زعماء الناس في القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا في حال الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك ، فكانوا بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يجبي من الأموال ، فإذا اجتمع من ذلك المال شيء فوق ما يفرض على قريتهم أنفق في إصلاح أحوالها . وكانت تجعل في كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها . . . وكذلك كانوا يقدرون ما يفرض على الناس من المال لضيافة العرب وكان هذا حقاً من حقوق العرب عليهم ، وكذلك ما كان يفرض من المال لضيافة الحاكم وإكرامه إذا وفد عليهم^(٢) .

فأين كانت تلك الدواوين المكتوبة باليونانية في عهد عبد الله بن عبد الملك ؟ أما القرى فهذه طريقة تقدير الضرائب فيها . فإذا سجلوا ما قدروه كان تسجيلهم بالقبطية ، وإذا قيل إن العرب كانوا يحتفظون بسجلات يونانية لتدوين الخراج ، ومعرفة ما يجبي ومواعيده وشبه ذلك ؛ وإن القائمين بشأنها كانوا من الروم ، فهو قول يضعفه نخلى الروم عن الأعمال وانتقالها إلى أيدي القبط .

(١) فتح العرب لمصر ص ٣٩١

(٢) فتح العرب لمصر ص ٣٩٢ ، حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٦٣ المطبعة الشرقية .

قلا عن ابن عبد الحكم .

وما عثر عليه من أوراق البردي في عهد الوليد بن عبد الملك ليس كتابة دواوين ، وفي الورقة الأولى والثانية من مجموعة جروهمان^(١) كلمات دينية معدودة ، باليونانية والعربية . وفي أسفل الورقة الأولى ، أو الطراز الأول كما يسميه ، نص قبلي من عشرة أسطر ، وفي أسفل الطراز الثاني ثمانية أسطر قبضية ، فليس في هاتين الورقتين من عهد الوليد ما يؤكد أن الدواوين كانت باليونانية . وإذا كانت هذه اللغة رسمية في عهد الرومان فقد زالت عنها هذه الصفة في عهد العرب . وربما جاء هذا اللبس من تشابه اللغتين ، فإن القبطية كانت تكتب بحروف يونانية ، وكان فيها كثير من الكلمات اليونانية . أما نظام الدواوين فكان يونانيا ، ولا مانع أن يبقى كذلك حتى بعد كتابتها بالعربية .

وبعد فإن ترجمة العرب لهذه الدواوين كان ضرورة لتقدمهم وورغبتهم في أن يلوا أمر البلاد بأنفسهم . وكثرت المصطلحات عندهم في أبحاث الفقهاء ، فلم يكن عسيراً عليهم أن ينقلوا الدواوين هنا وفي العراق والشام . ثم مرنا على هذه الأعمال فاستغنوا في شئونهم المالية عن أن يديرها لهم دخيل .

ومن الرسائل الأدبية رسالة من عبد الله بن عبد الملك ، إلى موسى بن نصير وإلى المغرب ، لما تخطاه وكتب إلى أبيه عبد الملك في دمشق ، فكتب إليه عبد الله يهدده :

« أما بعد . فإنك كنت من عبد العزيز وبشر بين مهادين تعلمو عن الحضيض مهودها ، ويدفئك دثارها ، حتى عفا مخبرك ، وصمت بك نفسك وأيم الله لأضمن منك ما رفا ، ولأقنن منك ما كثرأ ، فصح رويدا فكان قد أصبحت سادما ، تمعض أنا ملك نادما ، والسلام^(٢) . »

وكان جواب موسى بن نصير عليه^(١) :

« أما بعد . فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما وصفت فيه ، من إزكاني إلى أبويك وعمك^(٢) ، ولعمري إن كنت لئلك أهلا . ولو خبرت مني ما خبرا لما صغرت مني ما عظما ، ولا جهلت من أمرنا ما علما . . . فأما انتقامك لها ، فهما لك وأنت منهما ؛ ولها مك ناصر ، لو قال وجد عليك مقالا ، وكفاك جزاء العاق .

فأما ما نلت من عرضي فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك ، وأما تهدئك إياي بأنك واضع مني ما رفعا ، فليس ذلك بيدك ولا إليك ، فأرعد وأبرق لغيري ، وأما ما ذكرت مما كنت آتى به عمك عبد العزيز فلامري إني مما نسبتني إليه من الكهانة لبعيد ، وإني من غيرها من العلم لقريب ، فعلى رسلك^(٣) فكأنك قد أظلك البدر الطالع ، والسيف القاطع ، والشهاب الساطع ، فقد تم لها^(٤) وتمت له . ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجافي فلم تشعر به حتى يحل بعقوتك^(٥) فيسلبك سلطانك ، فلا يعود إليك ، ولا تعود إليه ، فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم ، وتوقن أيننا النادم السادم ، والسلام . »

فلما قرأ عبد الله جواب موسى بن نصير كتب إلى عبد الملك كتاباً وأدرج فيه رد موسى عليه ، ولكن عبد الملك مات قبل أن يتلقى الكتاب ، ووقع في يد الوليد بعد أن عزل عبد الله عن مصر ، فلما قرأه استضحك وقال : لله درّه ! إن كان عنده لأثرة من علم ، ولقد كان عبد الله غنياً أن يتعرض له .

(١) الولادة والقضاء ص ٦١

(٢) لعل الأصل « إلى أبيك » ليستقيم مرجع الضمائر فيما يأتي .

(٣) الرسل بكسر الراء : الرفق والتؤدة والمعنى ترفق وتمها .

(٤) الخلافة .

(٥) العقوة والعقاة بفتح العين : ما حول الدار والمحلة ، والمراد ينزل بساحتك .

ويذكرنا هذا بما جرى بعد ذلك بين سليمان بن عبد الملك وهو ولي عهد الوليد ، وبين الحجاج بن يوسف زمن ولايته على العراق ، وإن كانت الرسائل بينهما أشد وأعنف (١) .

وكانت الرسائل تترى بين دار الخلافة والفسطاط ، وأكثرها كتب رسمية في شئون الدولة . ومن هذه الكتب كتاب من الوليد (٢) إلى قرة بن شريك يأمره بالزيادة في المسجد الجامع سنة ٩٢ هـ . وكتاب من عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل بالزيادة في أعطيات الناس عامة (٣) . ومنها كتابه إلى شريح في وضع الجزية عن (٤) أسلم . وكتاب يزيد بن عبد الملك بمنع هذه الزيادة لما ولي الخلافة . وقد كتب الحر بن يوسف والي هشام بمصر يعلمه « أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها فإن الناس مضطرون إليها (٥) » فأذن له في بنائها .

ومنها كتاب عبید الله بن الجحباب إلى هشام كي يسمح له بإزالة قيس في جهة بلييس (٦) .

وكثير مثل ذلك حتى تنتهي دولة الأمويين .

(ح) في عهد العباسيين .

واستمرت الرسائل في عهد العباسيين في المسائل العامة كذلك . وكثرت فيها كتب الأمان والتحذير والإشخاص والتهديد ، وكانت تسكر في أيام الثورات والفتن .

(١) سيف بن مروان للمؤلف ص ١١٠ - ١١٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٦٥ (٣) الولاة والقضاة ص ٦٨

(٤) هذا الكتاب ص ٧ (٥) شرحه ص ٥١

(٦) هذا الكتاب ص ٩

وفي هذه الرسائل وأمثالها مجال واسع للمعاطف الثابرة ، والانفعالات القوية ،
والبلاغة المؤثرة ، والاحتجاج بالدين والعقل ، وإيراد الشواهد والأمثال ، من
القرآن الكريم والحديث ومأثور كلام العرب . ويغلب على هذه الرسائل الطول
إذا قورنت بما كان عليه الحال في العهد السابق .

أما أسلوب الكتابة العلمية فلم يكن واضح الحدود في أول عهد العباسيين ،
إذ أن المصطلحات العلمية كانت في دور التكوين ، وأساليب التأليف كانت
ما تزال وليدة ، فكان للعلماء تصرف في القول ، وحرية في الطريقة ، وكانت
الرسائل العلمية أدبية الأسلوب .

ومن أول هذه الرسائل العلمية التي تتسم بسمة الأدب الرفيع ، والأسلوب
الجميل ، والعمق في الجدل ، والقوة في البرهان ، وتدل على علم غزير ، وإطلاع
واسع ، ومعرفة عظيمة بمسائل الدين وآراء السابقين فيها ؛ تلك الرسالة التي
« كتبها سيد فقهاء عصره ، بل سيد فقهاء الأمصار علما ونبلا ، وهو الليث بن
سعد فقيه مصر ، إلى أخيه مالك بن أنس يبين له ما يؤخذ عليه في مذهبه من
جهة الاعتماد على عمل أهل المدينة ، وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه
مالك^(١) » .

والرسالة نفسها تشير إلى المكاتبات بينهما في مسائل الفقه ، وقد بدأها
الإمام الليث على طريقة القرن الأول ، من السلام والحمد لله وأما بعد ؛ أما الدعاء

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص ١١٦ وقد نقلت الرسالة بتمامها هناك ، وأصلها في إعلام
الموقين لابن قيم الجوزية (ج ٣ ص ٨٢ وما بعدها) ، ولم أقف على تاريخ إنشائها لكن
مالك مات سنة ١٧٩ ، والليث سنة ١٧٥ ، فكانت كتب حوالى منتصف القرن الثاني

للمرسل إليه بالعافية وحسن العقبي فطريقة من طرق العباسيين .
قال الإمام الليث رحمه الله :

« سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك ، الذي لا إله إلا هو . أما بعد عافانا
الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة .

« قد بلغني كتابك تذكرك فيه من صلاح حالكم الذي يسرني ، فأدام الله ذلك
لكم وأتممه ، بالمعون على شكره والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك في
الكتب التي بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك .
وقد أتتنا ، جزاك الله عما قدمت منها خيرا ؛ فإنها كتب انتهت إلينا عنك ،
فأحببت أن أبلغ حقيقةتها بنظرك فيها » .

ثم يقول له مشيراً إلى محور الرسالة ، وهو الاعتماد على عمل أهل المدينة .
وذكرت « أنه بلغك أني أفيتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس
عندكم ، وأني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به ،
وأن الناس تبس لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن . وقد
أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني بالموقع الذي تحب .
وما أجد أحداً ينسب إليه العلم ، أكره لشواذ الفتيا ، وأشد تفضيلاً
للملاء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه ، مني .
والحمد لله رب العالمين الذي لا شريك له » .

ثم يجادل صاحبه بالتي هي أحسن ؛ ويأتي بأمثلة ظاهرة ، وأدلة متظاهرة ،
وحجج متواترة ، تؤيد رأيه .

ويختم الرسالة ختلاً أديباً عفيفاً ، فيه صادق المودة ، وشريف العواطف ، وكريم
الصلوات ، وصالح الدعوات ، فيقول :

« وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ؛ لما أرجو للناس في ذلك

من المنفعة ، وما أخافُ من الضَّيِّعَةِ إذا ذهبَ بِمِثْلِكَ ، مع استثناسي بِمِثْلِكَ
وإن نأتِ الدارَ ، فهذه منزلتُكَ عندي ، ورأى فيكَ ، فاستيقنهُ . ولا تترك
الكتابَ إلى بخبرك وحالك ، وحالِ ولدك وأهلك ، وحاجةٍ إن كانت لك
أو لأحدٍ يوصل إليك ، فإني أُسرُّ بِذلك .

« كتبت إليك ونحن صالحون مُعَا فُونَ والحمد لله . نسأل الله أن يرزقنا
وإياكم شكرَ ما أولانا ، وتتمامَ ما أنعمَ به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله . »

ومن الكتب التي تركت آثاراً قوية في حياة العرب ولغتهم في مصر تلك
الرسالة التي كتبها المعتصم إلى واليه على مصر ، نصر بن عبد الله ، الملقب
« كَيْدُر » . وقد أمره فيها بإسقاط من في الديوان من العرب ، وقطع أعطيائهم
سنة ٢١٨ هـ^(١) . وكان ذلك سبباً في خروج يحيى بن الوزير الجروي في جمع من
لخم وجذام ، وترتب على قطع أعطيائهم ، وإسقاطهم من الديوان أن اضطروا إلى
مخالطة أهل البلاد ، ومصاهرتهم ، والاشتغال بمثل أعمالهم ، وأصبحوا ينظرون إلى
البلاد على أنها دار إقامة لهم . فأدى ذلك إلى انتشار لغتهم ، ثم سيادتها .

وفي القرن الثالث الهجري ظهر القول بأن القرآن مخلوق ، وأثار المأمون فتنة
بين الناس من أجل هذا القول ، وحملهم عليه حملاً ، وكتب منشوراً عاماً بامتحان
الفقهاء والعلماء ليرى رأيهم فيه ، ويرغم من خالف . وكتب أخوه أبو إسحق
« المعتصم » إلى كيدر ، واليه على مصر ، أن يأخذ الناس بالهنة ويختبر عقيدتهم
في القرآن^(٢) .

وكان كتاب أبي إسحق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد ، أخي

(١) الولاية والقضاء ص ١٩٣

(٢) الولاية والقضاء ص ٤٤٥

أمير المؤمنين ، إلى نصر بن عبد الله ، كيدر ، مولى أمير المؤمنين .
سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا اله إلا هو ، وأسأله أن يصلي على
محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

أما بعد . فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، كتب إلي ، فيما أمرني به من
الكتاب إلى قضاة عملي ، في امتحان من حضرهم للشهادات ، فمن أقر منهم بأن
القرآن مخلوق ، وكان عدلا ، قبلوا شهادته ، ومن دفع ذلك أسقطوا شهادته ، ولم
يرفعوا حكما بقوله ؛ وامتحان أولئك القضاة بهذه المحنة ، فمن نفي منهم التشبيه ،
وقال إن القرآن مخلوق ، أقره بموضعه ؛ ومن دفع أن يكون القرآن مخلوقا أمرته
باعتزال الحكم ؛ وأن لا يُمانَ بمثل ذلك ، في جميع أهل الحديث هنالك ، ومن
يُسمع منه ، أو يختلف إليه بسبب الفقه ؛ وترك الإذن لأحد منهم في حديث
أو فتوى إلا على انتحال هذه النحلة ، والقول بمثل هذه المقالة ؛ والبلوغ في كرامة
من يعتقد ذلك ومراعاته ، مبلغ المحتسب للخير ؛ والكتاب إليه أكرمه الله بما
يكون منك . وقد رأيتُ أن تمتحن القاضي هناك بالمحنة التي كتب بها أمير
المؤمنين أطال الله بقاءه ، ليعرف مذهبه وما عنده بأن القرآن مخلوق ، وترك التشبيه
والشك فيه ، فقدمت إليه في امتحان من يحضره للشهادات بهذه المحنة ، ومن
أقر منهم وكان عدلا قبلت شهادته ، ومن دفع ذلك وامتنع منه أسقطت شهادته ،
وإن أنكر القاضي أن يكون القرآن مخلوقا أمرته باعتزال الحكومة ، وأوعزت
بمثل ذلك إلى أهل الحديث ومن يسمع منه أو يختلف إليه ، لسبب الفقه ، وكتبت
إلى القاضي قبلك بمثل الذي كتبت إليك . فاعلم ذلك ، واعمل بما مثل به أمير
المؤمنين منه ، وائته إليه ، وابلغ من القيام به على حسب ما يلزمك ويجب عليك ،
وأحضر ما تعمل به عنده من وجوه أهل عملك وصلحائهم ، واكتب إلي بما يكون

من القاضى فى ذلك ، ومنك ، على حقه وصدقه ، لأنهم إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة وبركاته .»

وورد كتاب المعتصم على هرون بن عبد الله بحمل الفقهاء فى المحنة ، فاستعفى هرون من ذلك ، فكتب ابن أبى دؤاد إلى محمد بن أبى الليث بأمره بالقيام فى المحنة ، وذلك قبل ولايته القضاء ، وكان رأساً فى القيام بذلك ، فحمل نعيم بن حماد ، والبويطى ، وخشنام المحدث فى جمع كثير سواهم^(١) .

واشتدت المحنة فى أيام الواثق (سنة ٢٢٧ - ٢٣٢) وأمر أن يؤخذ الناس بها ، وكأنها نار أضرمت ، وورد كتابه على محمد بن الليث بامتحان الناس ، فلم يبق أحد من فقيهه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر المحنة ، وأمر ابن أبى الليث بالاكتاب على المساجد : لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق . فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه^(٢) .

واستمر البلاء حتى ولى المتوكل الخلافة ، فكتب إلى الوالى هرثمة بن النضر بأمره بترك الجدل فى القرآن سنة ٢٣٤ ، وعزل ابن أبى الليث ، وورد كتاب المتوكل بلعنه على المنبر ، وحبس وأهين وحلق رأسه ولحيته ، وطافوا به الفسطاط على حمار . ثم خرج من سجنه سنة ٢٤١ إلى العراق .

ولعل هذه الفتنة من أشد ما أثار الجدل بين المسلمين فى القرن الثالث وسفل

(١) الولاية والقضاء ص ٤٤٧ .

(٢) الولاية والقضاء ص ٤٥١ .

(٣) الولاية والقضاء ص ٢٩٧ .

الأدب كتابة وجدلا وشعرا . ونحن نرى أن مصر قد شاركت فيه ، وسفل
علمائها به ، وأوذوا في سبيله ؛ أما الجدل في مسائل الحلال والحرام والفقهاء وأصوله
وفروعه ، فكان قويا جداً بين الشافعية والحنفية والمالكية وكتبهم
تشهد بذلك .

والحديث عن هذه المؤلفات وأساليبها ، وطرق رجالها في البرهنة والشرح
والتقرير له مكانته في تاريخ الفقه والتشريع .